تذكار من القدر

كنت أسكن ضاحية المعادى ، تلك الضاحية المتأنقة المتعالية على غيرها من الضواحى ، المزهوة بشوارعها التى تزين جوانبها الأزاهير اليانعة المتباينة الأجناس والألوان ، وقصورها الفخمة التى تشهد بأرستقراطية سكانها ، وهدوئها الشامل الذى يبعث إلى النفوس الاطمئنان والسلام .

ظلت « الڤيلا » المقابلة لمسكنى خالية طوال شهرين. حتى إذا كان أحد الأيام دبت الحياة فيها ، وألفيت نوافذها كلها مفتوحة ، والخدم يذهبون ويجيئون بين أرجائها ، يزيلون ما علق على جدرانها من غبار ، ويغسلون أرضها . ولم تمض أيام قلائل حتى هيئت الڤيلا وأثثت وحل بها الساكن الجديد .

وبدا لى جليًّا أن الأسرة الجديدة التى سكنت الڤيلا واسعة الثراء . تنبئ عن ثرائها السيارة الأنيقة اللامعة السوداء التى أقلّتها ، والرياش الفاخرة الوثيرة التى أثثت بها الدار ، وكثرة الخدم مع أن أفراد الأسرة لا يزيدون عن ثلاثة أشخاص : ربها ، وهو رجل نيف على الأربعين جميل الهندام فى غير تأنق ، صبوح الوجه ، لم أره قط إلا ضاحك السن ، معتدل القامة ، موفور الصحة . وزوجته ، وهى سيدة متحفظة وقور ، أو هى من ذلك النوع الذى أصبح نادراً فى هذه الأيام . لم أرها قط عند نافذة ، أو فى الحديقة ، وأحياناً كانت تقلها السيارة وتمضى بها بعض الساعة ثم تعود . ثم ابنتها ، وهى لم تتجاوز السابعة عشرة ، ذات جمال عذب رقيق غريب ، ضاحكة مرحة ، لم أر قط من تماثلها مرحاً . كنت أراها طوال الوقت فى صحبة أبيها ، لا تفارقه ؛ فهى معه فى الحديقة ، يتنقلان بين أرجائها ، وقد تتركه فجأة لتعدو إلى زهرة تقطفها وتعود لتضعها فى عروة ردائه وهى تنظر إليه ضاحكة ، وهو ينظر إليها فى حنان وحب . وفى العصر كانا يلعبان « التنس » فى حلبة خلف الدار ، وكانت الغلبة لها كل مرة ، أو كان أبوها ينهزم لها ؛ فالمرأة تكره أن تغلب ولو كان غالبها أباها .

كانت من تلك الاسر السعيدة الهنيئة التى لا تجدها كثيراً فى هذه الأيام التى أصبح فيها معنى الأسرة والدان وأولادهما يسكنون بيتاً واحداً لا يأووذ إليه إلا فى فترات قليلة ، ولا يجتمعون إلا نادراً ، فاذا اجتمعوا قام بينهم النزاع والعراك . ولم يكن الرجل من أولئك الذين يصرفون أوقاتهم بعيداً عن بيوتهم . وسيدة الدار محتشمة لا تعرف غير زوجها وابنتها . وهذه الجميلة الضاحكة المرحة لم تكن من الفتيات العصريات إذا فهمت من العصرية أن تكون للفتاة علاقات ومغامرات .

وكانت هذه الأسرة تقضى سهراتها فى حديث رقيق فيه عطف وحنان ؛ أو يستمع الوالدان إلى عزف ابنتهما على البيان . وهى عازفة بارعة ، عزفها ساحر فتان .

لم يكن طاهر بك — رب الأسرة — من عشاق العزلة والعزوف عن الناس ، كان يبتسم لكل من يمر به من الجيران ، ويحييه أجمل تحية . ولعل هذا ما شجعنى على التقرب إليه ؛ وهناك شىء آخر هو تلك الجاذبية التى تميزه ؛ فهو من أولئك الذين تحس بالميل إليهم ، حين تراهم لأول مرة ولا تملك إلا أن تحبهم . وهكذا لم تمض بضعة أسابيع على قدومه حتى أصبحنا صديقين .

كان كثيراً ما يأتى لزيارتى ، فيصرف ساعات طويلة بين الكتب فى مكتبى ، إذ كان معجباً بمجموعة من الكتب فى الموسيقى ، وكان شغفه بالموسيقى عظيما . وكنا نقضى سهراتنا فى بيته نتحدث ، وأكثر ما نتحدث عن الأدب والفن . وكانت سميرة ابنته لا تفارقنا فى هذه السهرات . كان يلذ لها أن تقف منحنية على أبيها وتلف ذراعها حول كتفه وتضع رأسها إلى جانب رأسه . وسرعان ما ألفتنى هذه الفتيّة الحسناء ، التى كانت كزنبقة عاطرة ، فأقبلت تحادثنى فى غير كلفة من أول يوم رأيتها فيه . وبدا لى فيها شذوذ ، ولكنه شذوذ حبيب جميل .

وكان أبوها لا يكف عن النظر إليها ، نظرات كلها حب وعطف . . . لكم أثار هذا الحب الأبوى فى نفسى غيرة مكتومة . وساءلت نفسى فى حدة : لماذا لم أكن أنا أيضاً أباً لى أولاد أحبهم مثل هذا الحب ؟

سألنى طاهر بك يوماً :

— لماذا لم تتزوج ؟

ولم أتردد فى أن أجبته قائلا :

— لا أعرف ! . . وأعترف أنى طالما رددت على نفسى هذا السؤال وقد

بلغت الثامنة والثلاثين ولما أتزوج . . . ولعلى نسيت أن أتزوج . فقد مر شبابى ، كما مر شباب غيرى من الناس بين عبث ولهو دون أن أفكر فى الزواج .

وضحك طاهر بك كثيراً ، وأطلقت سميرة ضحكة كرنين أجراس فضية ، ثم تركتنا وخرجت تعدو من الغرفة . والتفت إلى الرجل وقال :

ـــ لعلك تعجب من حبى لهذه الفتاة ، ذلك الحب الذى يفوق ما عرفت من حب الآباء لأولادهم !

ـــ الحق أن ما رأيته من حبك الفياض لها أدهشنى كثيراً ... بل أثار غيرتى ، وجعلنى أفكر فى حرمانى عاطفة الأبوة !

ـــ إن لهذا الحب الأبوى الذى أدهشك أمره ، قصة من أعجب قصص غرائب القدر ! وأطرق مفكراً ، كأنما يستجمع ذكريات طوتها الأعوام . وارتجفت أهدابه قليلا ، وخيل لى أنى أرى دمعة تترقرق فى عينيه . فقلت له فى صوت خافت :

ـــ أهو سر دفين ؟

ـــ كنا نعده سرًّا فى عهد الشباب ، وما كنا نهمس به إلا فى آذان الشباب ! أما الآن فلم تبق منه إلا ذكريات ، بل إن زوجتى تعرف الأمر كله .

وسكت قليلا ثم قال :

ـــ سأقص عليك الأمر ، فاستمع إلى :

وأنا فى العشرين من عمرى كنت طالباً بمدرسة الحقوق ، وكنت أسكن «بنسيون» بشارع سليمان باشا ، إذ كان والدى بحكم وظيفته يقيم بالإسكندرية . اخترت هذا «البنسيون» معجباً بنظافته ، وحسن ترتيبه ، وظرف صاحبته . وزدت به إعجاباً حين وجدت نزلاءه ظرفاء حسنى العشرة . كان أحدهم أمريكيًّا جاء إلى مصر فى مهمة تتصل بالشركة التى يعمل بها ، والآخر يونانيًّا جاء إلى مصر كغيره من اليونانيين ، وهو لا يدرى لماذا جاء ، ومع ذلك يجىء ، ثم يعمل ، ثم يكتسب أموالا طائلة ! ... وثالثهم ألمانى ، لا أدرى ولا يدرى أحد ماذا يعمل ، كان ينصرف مبكراً ، وهو يحمل محفظة أوراق لا تفارقه ، ويعود ساعة الغداء فلم نكن نراه إلا تلك الساعة ... ثم شقيقتان مجريتان ، كانت إحداهما تعلّم البيانو ، والأخرى تعلم الكمان ، ومع ذلك لم أسمعهما قط تعزفان ، ولا تتحدثان عن الموسيقى . . . كانت الموسيقى فى نظرهما مهنة يتكسبان منها العيش . لم يبق من سكان البنسيون غير شيخ فرنسى كان يشتغل أستاذاً بإحدى المدارس الفرنسية .

كنا نلتف حوله أكثر الليالى ليحدثنا ، وكانت أحاديثه لا تنتهى ... ولعلى أطلت عليك الحديث عن البنسيون وسكانه ، وما أردت إلا أن أصور لك صورة كاملة لما كنت عليه فى ذلك العهد .

أحسست بميل نحو الأمريكى منـذ شاهدته أول مرة . ولاشك أنه أحس بمثل هـذا الميل نحوى ، فسرعان ما تآلفت روحانا . وسرعان ما فهم كلانا الآخر . وأصبحنا نقضى أوقات الفراغ معاً . ومضى العام وأنا سعيد بهذا البنسيون وبصحبة نزلائه . وقضيت إجازة الصيف بين والدىّ بالإسكندرية ثم عدت إلى القاهرة وإلى البنسيون وواصلت حياتى به كما كانت .

وفى أحد الأيام ، عدت إلى البنسيون عقب الدراسة ، وذهبت إلى غرفتى لأعد نفسى للجلوس على مائدة الغداء . ولم أكد أدخل الغرفة حتى اقتحم الأمريكى الباب ، وارتمى على المقعد وهو يلهث :

— اسمع ! ... ملاك هبط البنسيون !

— ملاك ؟

— نعم ! ملاك من السماء ، حل ضيفاً بيننا نحن الآدميين !

— أتريد أن تقول إن فتاة حسناء جاءت البنسيون ؟

— فتاة ؟ . . . إياك أن تنعتها بأى صفة من الصفات الآدمية . لا يمكن أن تكون الإنسانية قد سمت فجأة إلى هذا الجمال السماوى . . . والآن استعدّ لتراها ، ولـكن اجمع أطراف شجاعتك ، وتماسك !

— أتماسك ! . . .

— نعم ! قد يصعقك جمالها وأنت غير مستعد !

— كلا ! لا تخف . إنى لا أتصور الجمال إلا رقيقاً رحيما .

— صدقت ، فالجمال لا يؤذى ... ومع ذلك تماسك ، ولو على سبيل الاحتراس ،

وخرجنا إلى القاعة الـكبرى .

ورأيتها ! . . . كان جمالها . . .

إن جميع مافى معاجم لغات الدنيا من أوصاف للجمال والفتنة ، تبدو حقيرة تافهة عاجزة عن أن تعبر عن هذا الجمال السماوى الذى هبط هذا المـكان العادى فى القاهرة ، فشغل كل من كان به .

كان جميع نزلاء البنسيون ملتفين حولها ، يُصغون إليها مسحورين مأخوذين

وهى تحدثهم بصوت موسيقى عذب ، حتى الفرنسى العجوز الذى لم أره لحظة واحدة يكف عن الكلام ، كان يصغى إليها بكل ما فيه من حواس ، ويهز رأسه فتهتز لحيته الفضية . ورأيت الشقيقتين المجريتين تصغيان إليها مبتسمتين ولا أثر فى عيونهما للغيرة النسوية المألوفة ... حتى الألمانى جاء مبكراً ذلك اليوم على خلاف عادته ، وجلس بين الجماعة ، ولم يكن يجلس بينهم قبل اليوم ، وأقبل يصغى إلى الفاتنة الجديدة ، وعلى فمه العريض ابتسامة أعرض منه ، ومحفظته التى لم تفارقه لحظة تركها على مائدة بعيدة عنه . . .

ومنذ حلت هذه الفتاة — واسمها « نورا » — البنسيون ، انقلب كل نظام فيه رأساً على عقب ، واختلت مواعيد الطعام ؛ إذ أصبحت هذه المواعيد مرتبطة بحضورها ، وأصبح سكان البنسيون لا يجتمعون إلا إذا كانت هى موجودة . والكل راض عن هذا الاضطراب مسرور به ، حتى الألمانى كان مسروراً به أيضاً ، ذلك الألمانى الذى كان يتبع فى صحوه وخروجه وعودته وطعامه نظاماً مرسوماً محدوداً . وقد أهمل حذره الشديد فى مخالطة النزلاء فى البنسيون ، والتبسط فى الحديث معهم .

بعد ثلاثة أيام من حضورها ، كنت أنا وصديقى الامريكى راجعين إلى البنسيون ، فرأيناها فى المصعد ، واغتبطت بمرآنا كثيراً ، ثم أبدت لنا رغبتها فى مشاهدة أهرام الجيزة التى سمعت عنها كثيراً .

مضينا إلى الأهرام ، ووقع نظر « نورا » ، لأول مرة فى حياتها ، على هذا الأثر الضخم الشاهق .

وقفتْ فوق رمال الصحراء الوهاجة ، ووقفتُ أنظر إليها ، وهى تتطلع إلى الأهرام فى ذهول وإعجاب ، مفتونة بسحر هذا الأثر الغامض ، محدقة كأنما تخترق حجب الأسرار الكامنة فى جوف البناء العظيم ، كإلاهة خرجت من معابده تروى للناس قصة الأجيال الغابرة .

وانتقلنا إلى مشاهدة أبى الهول ، ووقفت ترنو إليه ، مأخوذة إعجاباً بهذا الرابض فوق الرمال منذ آلاف السنين ، وبابتسامته الساخرة الصامتة !

لن أنسى طوال حياتى ذلك اليوم الذى قضيناه بين الأهرام وأبى الهول ... ومنذ ذلك اليوم لم أفارق قط « نورا » ولم تفارقنى . كنت أحس شيئاً يجذبنى إليها ، فكنا نخرج معاً ، وكنا نجلس على مائدة الطعام متجاورين ، وتدعونى إلى

قضاء السهرة معها . ورأى زملائى فى البنسيون كل ذلك ، فكانوا يبتسمون لنا فرحاً بسعادتنا ، وكان الامريكى أشدهم اغتباطاً وسروراً .

وعرفت « نورا » من أحاديثى عن الموسيقى شدة حبى لهذا الفن ، فأخذتنى من يدى إلى البيانو وهى تقول : سأسمعك موسيقى لا شك ستحبها .

لم أسمع فى حياتى مثل هذا العزف الرائع . كانت أصابعها العاجية الشفافة تجرى فوق مفاتيح المعزف ، حيناً فى خفة وسرعة ، وحيناً فى بطء ونعومة ، وتنطلق الأنغام أحياناً مرحة جذلة ، وأحياناً كأنات قلب متوجع . عزفت لبيتهوفن «سوناتا» ضوء القمر ، ثم «بالاد» من شوبان ، وأخيراً « رابسودى هونجرواز » لليست . لقد شعرت كأنى أحلق على أجنحة غير منظورة فى أجواء متباينة مختلفة ، هادئة حيناً ، وصاخبة أحياناً ، وأسمع آناً تغريد العصافير ، ثم يدوى الرعد فيصم الآذان ، وأمر فوق حقول الزهر ، وأخترق شم الجبال .

لقد سمت فى عزفها إلى عوالم من خلق أولئك الفنانين العظام .

مرت بى فى صحبتها أسعد أيام حياتى . لا تحسب أنى أهملت دراستى ، فقد كانت « نورا » تحتم علىّ أن أكد وأعمل . مرت أيام أو أسابيع قد تكون شهراً أو شهرين ، لا أدرى ، فقد كنت نسيت الزمن !

وعدت فى أحد الأيام إلى البنسيون . ولما دخلت القاعة الكبرى كان النزلاء مجتمعين إلا نورا ، وكانت تبدو عليهم كآبة لم أعهدها فيهم قط ، فقلت فى نفسى : « إنهم كاليتامى فى غيابها ، الآن تعود ويعود إليهم مرحهم ! . . . »

ولكنها تأخرت ، وانصرفنا إلى الغداء ، وكان غداء كئيباً صامتاً ... لكن ما هذا الشحوب الحزين الذى يبدو على وجوههم ؟ . . . لماذا يتجنبون جميعاً النظر إلى ؟ . . . وهذا الشيخ الفرنسى يخلع نظارته ويمسحها بمنديله . . . والامريكى ، ماله يحنو علىّ عطفاً وإشفاقاً ؟

ونورا ! لماذا لم تحضر إلى الآن ؟

وما الذى ألجم لسانى فأسكته عن سؤال زملائى ؟

وتركنا المائدة ، ولعلنا لم نمسّ شيئاً من الطعام .

ومضيت إلى غرفتى ، ولازمنى صديقى الامريكى وجلس معى .

وعرفت كل شىء ! . . .

خرجت «نورا» صباحاً ، وفى الطريق دهمتها سيارة ففاضت روحها على الأثر .

أتريد أن تعرف كيف كان وقع المصاب على ؟ وهل أستطيع أن أعرف ؟ إن النوائب التى تفجؤنا وتصيبنا فى قلوبنا ، تسلبنا الشعور والإحساس ، وتترك الواحد منا كأنه كتلة من الجماد .

لا أدرى كم بقيت ملقى فى مكانى ، لا أحس بشىء ، ولا أرى شيئاً كغارق فى لجة من الظلام .

ثم أفقت ، وأبصرت خلال الدموع الغزيرة المنهمرة ، صديقى بجوارى ، ونزلاء البنسيون جميعاً وقد جاءوا يواسوننى ويعزوننى .

وجلسوا حولى ، وأخذوا يتشاورون فيما يجب عمله . أما أنا فما كنت أعى شيئاً أو أصلح لعمل شىء . واتفقوا على أن يبحثوا فى أوراقها ، عن جواز سفرها ويتصلوا بالقنصلية التى تتبعها .

لم أتصور قط أن هذا الجمال السماوى ، يودع صندوقا مغلقا تدق عليه المسامير !

ألم يجد سائق السيارة المتخبط ، غير هذه الياسمينة الرقيقة ، التى تذبل من لمسه ، فيهشمها بعجلاته ؟ ... بل هو القدر استكثر علىّ هذه السعادة ، فأراد أن يسلبها منى ، وقاد هذا السائق إليها كما كانت تقود الآلهة الناس إلى مصير محتوم !

مرضت بعد هذا مرضاً طويلا ، وصفه الأطباء باسم لاتينى غريب ، واستدعى أصدقائى والدى فجاء على عجل من الإسكندرية فى حالة مريرة من الجزع والاضطراب . ووجدت من عطف زملائى فى البنسيون ، وفى مقدمتهم الامريكى الكريم ، مالا أنساه طوال حياتى .

وهكذا انتهى شبابى وأنا فى العشرين من عمرى ! . . .

وسكت طاهر بك ، ولمحت دمعة تنحدر على خده ، دمعة من الدموع الغزيرة التى سكبها ، ظلت محبوسة خمساً وعشرين سنة ، ثم ذرفها الآن !

وعاد الى الكلام قائلاً :

مرت أيام حياتى بعد كل هذا ، تافهة لا فرق بين صبحها ومسائها . وبعد عشرة أعوام تزوجت من الفتاة التى اختارتها لى والدتى ، وهى زوجتى هذه التى وجدت فيها أكرم زوجة ، وأوفى صديق ، ثم رزقنى الله ابنتى سميرة .

وفتح أحد أدراج مكتبه ، وأخرج صورة قدّمها إلىّ ، فقلت وأنا أنظر إليها

— هذه صورة ابنتك سميرة ؟

— كلا ! وهنا أعجوبة القدر التى أريد أن أحدثك عنها . أنظر تحت الصورة .
ونظرت فإذا كلمة إهداء ، وإمضاء « نورا » وتاريخ قديم مضت عليه أعوام طويلة ، ولـكن الصورة سميرة بعينها .
ومضى طاهر بك يقول :
— هذه نورا ، وكأنك ترى سميرة . وكما يقدم إليك صديق صورته تذكاراً منه ، منحنى القدر فى ابنتى صورة حية لتلك التى رحلت من زمن بعيد . كنت أرى سميرة وهى تشب وتنمو تقترب شبهاً من نورا ، حتى أصبحت كما تراها الآن فإذا هى هى . ولم يقتصر الشبه على الخلقة بل امتد إلى كل شىء فيها : فى إشاراتها وحركاتها ولفتاتها ، وفى مرحها ، بل فى حبها العجيب للموسيقى ، وفى براعتها فى العزف . إنها « نورا » أعادها القدر بعد أن اختطفها تلك الأعوام الطويلة ...
ولعلك أدركت الآن سر شغفى بها ، فوق الحب الذى وضعه الله فى قلوب الآباء .
على أن أشد ما يزعجنى ويشغل بالى كثيراً هو أن أفقد ابنتى كما فقدت الحبيبة . لهذا ترانى لا أستطيع بعدها عنى كثيراً . إن القدر الذى مزق قلب العاشق ، لا يتورع عن أن يمزق قلب الأب . إنى لأخشى أن يتم الشبه بين الاثنتين حتى فى المصير .
ومد يده يريد أن يدق الجرس . ولـكن قبل أن يفعل ، دخلت سميرة الغرفة وهرعت نحو أبيها ، فقال لها :
— جئت يا سميرة ؟
— أدركت أنك لابد تسأل عنى ، فقد طالت غيبتى عنك .
— وأنا كدت أرسل فى طلبك .
وانحنت عليه ، ولفت ذراعها حول عنقه ، ووضعت رأسها بجانب رأسه . وجعلت تنظر إليه مبتسمة بل ضاحكة ، وهو ينظر إليها وفى عينيه دموع ، وعلى فمه ابتسامة .
ثم رفعت رأسها ونظرت إلىّ فى تحدّ وقالت :
— قل لى ... لماذا لم تتزوج ؟
— ... !

محمود عزّى